تداولية المقام في الشعر الصوفي ديوان تائب على الباب لعبد المجيد فرغلي

The deliberative position in Sufi poetry Divan repentant on the door to Abdul Majid Farghali

هيثم بن عمار[1]

1-جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر/Algeri069900@gmail.com

تاريخ الاستلام:2021/01/23 تاريخ القبول:2021/08/28 تاريخ النشر:2021/12/26

ملخص :بعد أن يتحقق السالك بآداب السلوك العامة ، يستطيع أن يصحح مقامات سلوكه وأحواله المختلفة ويرتقي فيها دون أن يخشى الانقطاع عن الوصول إلى الله ، والمقامات هي مراحل الطريق إلى الله التي يقطعها السالك في رحلته نتيجة مجاهداته لنفسه ، لذلك كان اتصاف السالك بالصفاء من خلال وفاءه بعهده مع الله ، يعني انقطاعه التام عما يشغل الخلق عن العامة. لذلك فإننا نروم في بحثنا هذا إلى استنباط مظاهر المقامات الصوفية في شعر " عبد المجيد فرغلي " منطلقين من فكرة استلهام المقام كدرجة روحية معلنة في شعره ، والتي رأيناها بعد تحليلنا تشكل ظاهرة أسلوبية تفرد بمقولاتها بنفسه ، وتشكلت رسوماتها عبر جموع قصائده ، فكان منها مقام الحب والعشق ، ومقام التوبة ثم مقام الزهد والرجاء وألحقنا بتلك المقامات تشكيلات شعرية تنبئ القارئ عن بعض الصفات التي اتصف بها الشاعر.

كلمات مفتاحية: تصوف ، مقام ، خلوة ، مناجاة ، تداولية .

Abstract: After the seeker has achived the general etiquette of behavior ,he can correct the various positions and conditions of his behavior and rise in them without fear of being cut off from reaching god. With god ,it means his complete cessation from what distracts creation from common people.
Therefore ,we intend our research this to deduce the manifestations of the sufi maqamat in the poetry of " abd al_majid farghali" based on the idea of inspiring the maqam as a spiritual degree declared in his poetry, which we saw after our analysis constituted a stylistic phenomenon that was unique to its statements by itself. Love, the place of repentance, then the shrine of asceticism and hope, , and we have attached these shrines to poetic formations that inform the reader about some of the qualities thatcharacterized the poet.

Key words: Sufism, Maqam, Retreat, Munajat, deliberative.

المرسل: هيثم بن عمار[1]

Algeri069900@gmail.com

-تمهيد :

إن اتصاف السالك بالصفاء من خلاله وفاءه بعهده مع الله يعني انقطاعه التام عما يشغل الخلق من العامة ، بل وعنهم أيضا ، حتى إذا تفرغ من أشغال الدنيا أقامه الحق في خدمته ، وبهذا الانقطاع يجسد حقيقة صفاء سريرته فيصبح من صفوة الخلق وخاصتهم ، وذلك بتشريفه بخدمة الله تعالى لأنه أراده فطلبه فوجده .

وانطلاقا من هذا إذن يتجلى لنا فهم السالك الذي يرد جوهره إلى صفاء السريرة وهي الغاية الموجودة ، أما سبيلها فهو عقد يتم بين العبد وربه شرطه الوفاء ، وثمنه تسليم الكل ، وأساسه الرياضة والمجاهدة ومما سيأتي سنحاول أن نبين كيف انطلق الشاعر من فكرة استلهام المقام كدرجة روحية معلنة في. و التي رأيناها بعد تحليلنا تشكِّل ظاهرة أسلوبية تفرّد بمقولاتها بنفسه، و تشكّلت رسوماتها عبر جموع قصائده. فكان منها مقام الحبِّ و العِشق ، و مقام التّوبة ثمّ مقام الزّهد... و ألحقنا بتلك المقامات تشكيلات شعريّة تنبئ القارئ عن بعض الكرامات التي وقعت لهذا الولي.

1_ تداولية المقام في الخطاب الصوفي :

لا ريب أن المقامات فضائل السلوك الصوفي ، وخير ثمرة يجنيها السالك ، فضلا عن أنها أسمى مصطلحات الصوفية وأقربها إلى فرائض الدين وأكثرها جمعا بين الشريعة والحقيقة ، ومحافظة على التصوف المعتدل الذي ينبذ الشطح وينكر الدعاوى ويحارب مخاريق العادات .

والمقامات عبارة عن معارج ومنازل روحية يفهم منها ميزة السلوك ومدارج السالكين ، إذ لكل سالك إلى الله تعالى حياته الفردية الخاصة وعالمه الروي الذي يعيش فيه وحده ، وهذه

الطريقة هي المعراج الروحي وهي ما أطلقوا عليها السلوك والمعراج وقسموها إلى مراحل أو منازل سموها بالمقامات .[1] (الغني، 1987)

والمقام في اصطلاحات الصوفية هو ما يتحقق به العبد بمنازلته من الآداب مما يتوصل إليه بنوع تصرف ويتحقق بضرب تطلب ومقاساة تكلف ، فمقام كل واحد في موضع إقامته عن ذلك ، وهو مشتغل بالرياضة له ، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوف أحكام ذلك المقام ، فإن من لا قناعة له لا يصلح التوكل ، ومن لا توكل له لا يصلح له التسليم ، ومن لا توبة له لا تصلح له الإنابة ، ومن لا ورع له لا يصلح له الزهد ، والمقام هو الإقامة كالمدخل بمعنى الإدخال والمخرج بمعنى الإخراج ، ولا يصح لأحد منازلة مقام إلا بشهود إقامة الله إياه بذلك المكان ليصح بناء أمره على قاعدة صحيحة . [2] (القشيري، 1989)

والتجربة الصوفية إذن تجربة وجدانية لا تنبثق عن العقل الواعي للذات الإنسانية ، وإنما تقوم على تلك المنزلة الروحية التي يصل إليها الصوفي ، ومنها يكون المقام باعتباره مرتبة معينة معلومة صفاتية يصل إليها المريد أثناء مسيرته في طريق الله تعالى من أجل الوصول إلى رحاب الحضرة القدسية ، [3] (الحكيم، 1981)لذلك فقد جاء في مقدمة ابن خلدون (ت808هـ) " أن المقامات لا يزال المريد يرتقي فيها من مقام إلى مقام آخر إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة ، فالمريد لا بد له من الترقي في هذه الأطوار والتي أصلها كلها الطاعة والإخلاص ويتقدمها الإيمان ويصاحبها " [4] (خلدون، 1998)

وبالنسبة لعدد المقامات وترتيبها فإن المشهور عدم اتفاق الصوفية في هذا الشأن فقد اجتهد بعض الدارسين المحدثين إلى أن المقامات هي (التوبة ، الصبر ، الزهد ، الورع ...) ، ومنها المرتبط بالمناجاة (الشكر ، الرضا ، التوكل) وهي من مقامات الوصول ، فالصوفي

وهو في مجاهداته للوصول إلى الله تعالى لا يجد لذة أجمل تقربه إليه بالأذكار والنوافل والطاعات ، فهو عبد شاكر راض متوكل عليه تعالى .

وهكذا إذن تتحدد هوية الصوفي وفق المقامات التي يرتقي في مدارجها ، وفي أثناء هذا الطريق تنبثق المناجاة باعتبارها وسيلة تواصلية تعكس حاجة الذات الظمأى إلى نور الله ، وعند الارتواء تتحقق السعادة الأبدية لأن شراب المناجاة يروي ظمأ العطشان .[5] (الشرقاوي، 1998)

وباعتبار الخطاب الشعري الصوفي خطاب وظيفي تداولي فالصوفي قد قّيد بالكتابة في سائر المدارج والرؤى والمشاهدات علاوة على توثيق كل ما يهم النظر الصوفي في باب السلوك والاستغراق والصعود ، لذا فإنه يصح القول بأنهم خلقوا فنا من الأهمية قدر ما نهتم بالخطاب وكيفية تشكله وطرق اشتغاله في كتاباتهم الزاخرة ، وهذا إذن ما جعلنا نهتم بهذا النوع الخطابي باعتباره أداة توصيل ينبع الجمال منه على نحو عفوي من داخله .

2_من تداولية المقام إلى التحليل الشعري للمقام :

إذا كانت المقامات تصور لنا معارج الطريق الصوفي ومدارج أرباب الطريق ، يتدرج فيها السالك ليصل إلى حال الفناء ، كما يصور لنا أرقى الجوانب الأخلاقية الرفيعة كما هي موجودة عند الصوفية من خلال المقامات والتي تعد القاعدة الأساسية في بناء الخطاب الشعري الصوفي وصيرورته ، حتى قيل أن العبد لا يبلغ حقيقة المعرفة وصفاء التوحيد حتى يعبر المقام ، ولما كان هكذا سنحاول أن نبين كيف استطاع الشاعر أن يبلغ درجة المشاهدة من خلال المقامات .

أ_ مقام التوبة :

التوبة أول مقام من مقامات العارفين ، وهي الرجوع من الذنب في القول والفعل ، وبعبارة أخرى هي تنزيه القلب عن الذنب والرجوع من البعد عن الله سبحانه إلى قربه ، أو الرجوع عما كان مذموما في الشرع إلى ما هو محمودا فيه .ومقام التوبة رفيع الدرجة لما يتعلق به من الزهد والورع والقناعة والافتقار إلى الله تعالى والعبرة في الجوع والشبع وكيف يكون العبد نقيا في هذا وذاك .[6] (الجوزي، 2004)

وفي هذا يقول الغزالي " إن للتوبة ثمرتين ، إحداهما : تكفير السيئات حتى يسير كمن لا ذنب له ، والثانية : نيل الدرجات حتى يصير حبيبا " [7] (القشيري، 1989)والتوبة الحقيقية تلازم الندم والحزن على ارتكاب الذنب ، وهي تحتاج إلى معرفة الذنب ، وهي باعتبار التائبين مراتب ثلاث : التوبة العامة ، والتوبة الخاصة ، وتوبة خاصة الخاصة ولكل منهم بواعث وخصائص ، والناس فيها أربع طبقات يتباين كل منهم عن الآخر .[8] (الغزالي، دت)

ولما كان هكذا فقد اتفق شعراء الصوفية على أن مفتاح الطريق بما فيه من منازل ودرجات وكشوف يكمن في التوبة ولا يتأتى للمريد شيئا أصلا دونها . لذلك يقول الشاعر في هذا المعنى بأسلوب وعظي خال من الروعة الفنية أين يقترب إلى اللغة النثرية يقول : [9] (إقبالي، 1985)

فسبحت ربي بدمع المتاب رجاء الثواب وحسن الجزاء

وأطلقت للدعوات العان وناجيته تحت جنح المساء

ويقول :[10] (فرغلي، 1987)

بنجوى التراويح شدو الحنين

بعيد الصلاة بشوق انتماء

سألت إليه الورى عفوه

وغفـران ذنب لعبد أساء

وعاد إلى ربه خـاشعا

وأدمعه مرسلات البكـــاء

وإلى جانب هذا فالشاعر في نموذج آخر يقول في ابتهال عارم لاستمطار التوبة وهو يستفيد فيه من أسلوب الدعاء يقول :[11] (فرغلي، 1987)

أتي موسم الطهر يجلو الذنوب

ويسكب في الروح نبع الضياء

ونفس من الذنب لـــــوامة

تريد التطهـر من كـــل داء

وهل في التضرع للمستجيب

سوى عودة وقتها اليوم جاء

فيا رب في شهر محو الذنوب

أجب سؤلنا واطو عنا البلاء

ويقول : [12] (فرغلي)

متاب وإخلاص وللحق عودة

وصوت له في الخافقين مجـاوب

واتمم لنا يا رب نورا وتوبة

مناسكها تقضي وتحي مذاهب .

فالخطاب هنا يتوجه صعدا إلى الله تعالى في مناجاة ضارعة من الأنا التائبة ، واللفظ الدال على ذلك في البيت الأول " فيا رب في شهر محو الذنوب " وهذا دليل على الرجوع من الذنب والإقبال على الله تعالى بالسر والقول والفعل ، حتى يكون دائما في فكره وذكره وطاعته .

وإلى جانب هذا كذلك يقدم الشاعر نموذجا شعريا مبنيا بناءا محكما نستطيع أن نسميه صراع ما قبل التوبة ، والذي أراد من خلاله أن يلج باب التوبة وأن تلوح له بارقة الاستقامة يقول مستعملا أسلوب الدعاء طالبا من الله أن يوفقه وغيره للتوبة يقول :**13** (فرغلي، 1987)

سألت ربي بها الغفران عن زلل

لكل ملتمس في نفسه وطر

بشهر صوم به طابت سيــاحتنا

في طاعة الله لم يعلق بها وضر

وها أنا يا إلهي قد بسطت يدي

بالخير والحب فيما فيه يختبر

وهكذا إذن قدم لنا الشاعر هذا المقام بنفس الصورة التي جاء فيها عند أغلب المتصوفة ، فخلصنا إلى أن هذا الشعر الذي قدمه الشاعر والذي يتناول مقام التوبة بقي متأثرا بالأساليب الوعظية المباشرة في الأغلب ، كما بدا لنا أيضا من جانب آخر أن الأسلوب الإنشائي هو الغالب على هذا اللون من الشعر والذي يتمثل في الطلب والنداء والدعاء وغير ذلك من الأساليب الإنشائية .

2_مقام الزهد :

المخلصون من الصوفية قوم مجتهدون في طاعة الله ، ولكنهم ليسو أنبياء معصومين ولا ملائكة مطهرين ، بل هم بشر يصيبون ويخطئون ، والزهد كما قال أبي نصر الطوسي" مقام شريف ، وهو أساس الأحوال الرضية والمراتب السنية ، وهو أول قدم القاصدين إلى الله عز وجل ، والمنقطعين إلى الله ، والراضين عن الله ، والمتوكلين على الله تعالى ، فمن لم يحكم أساسه في الزهد لم يصلح له شيء مما بعده ، لأن حب الدنيا رأس كل خطيئة ، والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة . **14** (فرغلي، 1987)

ويعرفه الغزالي " إنه انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه ، فكل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وقوام هذا الزهد التقوى وكف النفس عن الهوى وقطع علاقة القلب عن الدنيا بالتجافي عن دار الغرور والإنابة إلى دار الخلود " **15** (الطوسي، 1960) ولما كان هكذا كانت صوره متعددة بتعدد الأحكام ، فكان فضيلة ، وفريضة ، وقربة ، ...إلخ وانطلاقا من هذا إذن سنبين كيف عبر الشاعر عن هذا المعنى تعبيرا صادقا معجونا بالتجربة الروحية .

وإذا ما أردنا أن نتبين ذلك لدى الشاعر فقراءتنا لهذه المقطوعة يوحي لنا بأن معانيها كلها توحي أو ذات صلة ، خاصة بعد أن صاغ الشاعر قصيدته في قالب ثابت وهو رسم عدة صور للدنيا والعمر لتحقيرها في الأذهان ولترغيب الناس في الآخرة وتبليغهم بأن العمر قصير ومحدود يقول : **16** (الغزالي، دت)

يـــا ليلة القدر مديني بأجنحة

من رحمة الله إني طال بي سفر

أعددت عندك للإســـراء راحلتي

لرحلة حفها الإشفاق والحـذر

حملت زادي فيـــــها يوم مسغبة

أطعمته صالح الأعمال يدخـر

أتيت ربي بطـاعات أقدمها

في أخريات حياة ضمها العمر

ويستمر الشاعر في بث تلك الشحنات في نفس القصيدة خاصة فيما يخص التذكير بالوقت واغتنامه ، فهذه خصيصة أخرى من خصائص الوقت ، فكل يوم يمضي ، وكل ساعة تنقضي ، وكل لحظة تمر ، ليس في الإمكان استعادتها ، وبالتالي لا يمكن تعويضها يقول :**17** (فرغلي، 1987)

يا رحلة العمر سيري بين قافلة

من رحمة الله فيها يرتجى أثر

إني لتارك دنيا لست أطلبـها

إن كان فيها بعقبى عيشها سعر

وها أنا يا إلهي قد بسطت يدي

بالخير والحب فيما فيه يختبر

ويقول :**18** (فرغلي، 1987)

لا يا ابن آدم مستحيل إن البقاء بها قليل

ستزول عنها راحـلا مهما بك أمد طويـل

دنـــياك طيف عابر حالا يصبح بك الرحيل

وينتهي الشاعر في آخر قصيدته إلى التذكير بالآخرة وفكرة الموت واصطفاف المذنبين على النار ، وهذه الفكرة كان الشاعر يعزف عليها ليزلزل قلوب العصاة يقول :**19** (فرغلي، 1987)

يا نفس لا تطعمي من زاد ضرتها

أو من مسرتها والمنتهى سقـــر

تفنى لـــذائذها من كل مغرية

ويبتقي ضرر ..مـــا بعده ضرر

تبقى عواقب سوء غير مجـــدية

إلا بزج نفوس في اللـظى تذر

ويستمر كذلك الشاعر في نسج قصائده على أسلوب غاية في الجمال ، فها هو يقدم لنا نموذجا شعريا آخر يظهر فيه أشد ندما، لذلك فإن أجمل ما قاله هو أبيات يتحدث فيها عن مدبر دنياه لم يبق إلا ذكراه ، فهو آسف على متاع فاته وزاد أضاعه في هذه الحياة القصيرة يقول :**20** (فرغلي، 1987)

رباه يا بارئ الأكوان من عدم
هب لي حماك ملاذا فيه يؤتثر
أنت الكـــريم الذي يؤوى لدوحته
إذا الهجير حمى أو فيه يعتثـر
من ساحة الخلد يوم الحشر أدخلها
ولي رجاء به للزاد أكتثر
ألست ربي أدعوه بنـــائبتي
وصوت تائبتي ما جاء يعتثر

لاشك أن الوقوف بين يدي الله عز وجل للحساب موقف جليل مهيب تقشعر منه الأبدان ، وكيف لا يكون ذلك ؟ وهو وقوف بين يدي الجبار ، القاهر فوق عباده ، وما بعده إما خلود في الجنة ، أو خلود في النار أعاذنا الله منها .

وهكذا رأينا أهم ما تطرق إليه الشاعر في مقام الزهد والتي كونها أمورا في حقيقتها فلسفية عقدية تتعلق بالتذكير بزوال الدنيا ، والقدر والإيمان به ، والموت والتذكير به ، وما يصاحبه قبل وبعد وقوعه ، إلا أن شاعرنا قد سلك مسلكا آخر بعيدا عن الفلسفة والغرابة والتعقيد وجنح إلى الرؤية الحقيقية، كما اتخذ كذلك من الدعوة سلاحا ومنطلقا إلى نفوس الآخرين والتغلغل فيها بأفكار ومعان تنفر من المعاصي والذنوب ، وتدعو إلى التوبة والإنابة إلى الله.

3_ مقام التوكل :

من أهم مقامات الصوفي ودرجته باختلاف درجة الإيمان،والتوكل في مضمونه يعني تحقيق التوحيد لأن التوكل على أي مخلوق أو الخوف منه شرك خفي . وقد سئل الجنيد عنه فقال :" اعتماد القلب على الله تعالى ." **21** (فرغلي، 1987)

ويقول الطوسي رحمه الله في اللمع " التوكل مقام شريف ، وقد أمر الله تعالى به وجعله مقرونا بالإيمان ، ولم يكن من المقامات الهامة إلا لأنه " وثوق بالمضمون واستبدال الحركة بالسكون " والثقة بالمضمون هي الثقة بالله تعالى ، لأنه هو القائم بذاته وهو الحقيقة الوحيدة ، وما عاداه فهو مفتقر بذاته قائم بنسبته للحق .**22** (الطوسي، 1960)

ومن خلال هذا إذن يتضح لنا أن مقام التوكل الذي هو موجود في القرآن الكريم نجده عند الصوفية ، وهذا مما يعني أن تصوفهم موزون بميزان الكتاب والسنة .

وإذا كنا قد علمنا معنى التوكل فيكفي أن نتطرق إليه من خلال بعض الشواهد الواردة في الديوان ،فقد جسد الشاعر في قصيدة من قصائده عليه بعدما رأيناه يرمي بكل مقاصده في الاشتغال بالخالق والابتعاد عن الخلق لأنهم لن يغنوا عنه من الله شيئا يقول :[23] (الطوسي، 1960)

عرفت ربي فأدناني لرحمته

في شهر صوم به طابت مناجاتي

ناجيته خاليا من كل مسألة

تبغي لدنياي وازدادت عباداتي

ويقول كذلك في قصيدة أخرى يرسم لنا صورة توحد الذات والذات المطلوبة ، وفي هذا النموذج تعبير صريح عن فكرة التوكل ، وعندما ذابت كل الآمال لديه ولم يبق إلا حبل الخالق يقول :[24] (فرغلي، 1987)

مني إليك تضرعي وتذللي
في النصف من شعبان لي تنويل
في يوم تحويل لقبلة مرســـل
حققت بغيته عساي أنــول
فوضت أمري للسماء وذي يدي
رفعت إليك ولـدموع مسيل

ولعل رغبة الشاعر في الكشف عن سر الباطنية وتعلقه بالذات الإلهية ، فيبرز لنا تلك الأنا المتعلقة والمتماهية والمتكلة على الذات العليا يقول :[25] (فرغلي، 1987)

إلـــــــهي كن بها عوني
وبدد ظلمة الكـــــرب
أنر لي سمت أيـــــامي

وإنك غـــــافر الذنب

خاتمة :

وهكذا بعد هذه الدراسة رأينا كيف عبر الشاعر عن معانية المعاني النفسية والأخلاقية بواسطة المقامات ، وكيف أنه أحذ بالمقامات دون تأويل أو تحريف ، فجاء شعره موزونا بمعيار مما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية .

الهوامش :

1. مصطفى عبد الغني : نجيب محفوظ " الثورة والتصوف " ، الهيئة المصرية للكتاب ، (ط2) ، القاهرة ، مصر ، (دس) ، ص 126.
2. _زين الدين أبي القاسم القشيري (ت 465هـ) : الرسالة القشيرية ، تحقيق : محمود بن الشريف ، مطابع دار الشعب للصحافة ، (دط) ، القاهرة ، مصر ، 1989، ص 132.
3. سعاد الحكيم : المعجم الصوفي " الحكمة في حدود الكلمة" ، دار دندرة ، (ط1) ، بيروت ، لبنان ، 1981، ص 932.
4. عبد الرحمن ابن خلدون (ت 808هـ) : المقدمة ، تحقيق : عبد الله محمد الدرويش ، مكتبة الهداية ، (ط1) ، دمشق ، سوريا ، 2004، ص 229.
5. ينظر : حسن الشرقاوي : معجم الألفاظ الصوفية ، دار الفكر العربي ، (ط1) ، القاهرة ، مصر ، 1998، ص 265.
6. ينظر :عبد الرحمن عبد الجوزي : المدهش ، تحقيق : أحمد الطاهر حامد البيسوني ، دار الحديث ، (دط) ، القاهرة ، مصر ، 2004، ص 412.
7. زين الدين أبي القاسم القشيري (ت 465هـ) : الرسالة القشيرية ، ص 168.
8. أبو حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، دار الفكر ، (دط) ، بيروت ، لبنان ، (دت) ، ج12، ص 11.

9. عباس إقبالي : المجاني من النصوص العرفانية ، منظمة سمت طهران ، (ط2) ، طهران ، إيران ، 1985، ص 45.44.
10. الفرغلي : تائب على الباب ، ص36.
11. المصدر نفسه : ص37
12. المصدر نفسه : ص37.
13. الفرغلي : الديوان ، ص 71.
14. الفرغلي : الديوان ، ص 71.
15. أبي نصر السراج الطوسي : اللمع ، تحقيق : عبد الحليم محمود ، دار الكتب الحديثة ، (دط) ، القاهرة ، مصر ، 1960، ص 72.
16. 16_ أبي حامد الغزالي : إحياء علوم الدين ، ج4، ص 216.
17. الفرغلي : الديوان ، ص 46.
18. المصدر نفسه : ص 47.
19. المصدر نفسه : ص 145.
20. الفرغلي : الديوان ، ص 47.
21. الفرغلي : الديوان ، ص 50.
22. أبي نصر السراج الطوسي : اللمع ، ص 79.
23. المصدر نفسه : ص 79.
24. الفرغلي : الديوان ، ص 54.
25. الفرغلي : الديوان ، ص 77.